

أين أنفق على أهلي وأنا أؤدي إليك أكثر راتبي؟! قال الشيخ: لا أدري؛ ولكن أنفق على أهلك فإنني لا أجد ما أنفق على أهلي. قال الفتى: سأؤدي راتبي كاملاً إذا كان آخر الشهر. قال الشيخ: وأين يقع هذا الجنيه الذي تحتجزه لنفسك مما أريد؟! قال الفتى: فإن الله لا يُكَلِّفُ نفساً إلا وسعها. قال الشيخ: صدق الله العظيم؛ فإن الله لا يكلفني إلا ما أطيق، ولست أطيق أن أنفق على أهلك. قال الفتى: فإنك لا تُنفقُ على أهلي، وإنما أنفق عليهم بما أؤدي إليك من راتبي. فقهقه الشيخ قهقهة كلها غضب وقال: فإنك تمنّ عليّ بما تؤدي إليّ من هذا المال القليل كأنني لم ألدك، ولم أربك، ولم أزوجك، ولم أنفق عليك وعلى أهلك إلى أمس القريب، إني لا أريد منك مالاً ولا معونة، ولكن تحوّل عني وحوّل أهلك إلى دار أخرى، وأنفق على نفسك وعليهم براتبك إن استطعت إلى هذا سبيلاً. قال الفتى محزوناً: فإنني لا أؤمنُ عليك شيئاً، ولا أجد من نعمتك قليلاً ولا كثيراً، ولكني لا أستطيع إلا ما عرضته عليك، فسأؤدي إليك راتبي كاملاً. قال الشيخ وقد ملكه غضبٌ مجنون: لا أريدُ منك مالاً، وإنما أريد أن تتحول بأهلك عني، فحسبي من عندي من العيال وانصرف عني الآن، فإنني أخشى أن ينطق لساني بما أكره.

وخرج الفتى محزوناً كئيباً لا يدري ماذا يصنع! ولكنه نظر فإذا هو يطرق باب صديقه وأخيه سليم، ولم يكد يلقى صديقه حتى قال له هذا في لهجة قد امتزج فيها الغضب والحنان: ما رأيت كالיום رجلاً يدخل على الناس بما يكرهون! ألقيت بهذا الوجه أحداً في طريقك إلى هذه الدار؟ قال خالد: وما ذاك؟ قال سليم: وجه مظلم، ووجهة مقطبة، وشفتان تمتدان شبرين إلى أمام؛ أي كارثة ألمت بك؟ أترك قد أوسقت سفينتك بُناً فغرقت في طريقها إلى المدينة؟! وكاد خالد يضحك لهذا العنف الرحيم، ولكن سليماً مضى في تأنيبه وقد أخذ صوته يزداد قسوة، وأخذت لهجته تزداد حدة، فقال: أمسك عليك سِرَّك أيها الرجل، واحفظ على نفسك غيبها، ولا تجعل من وجهك للناس كتاباً مفتوحاً يقرءون فيه من أمرك ما يشاءون، ليكتتب قلبك ما أرادت الأحوال أن يكتتب، وليبتئس ضميرك ما شاءت الحوادث أن يبتئس، ولكن ليكن وجهك مستوي المنظر في أوقات الشدة والرخاء! فليس يعني الناس ما يصيبك من خير وشر، وإنما أنت تثقل عليهم حين تلقاهم بوجه عابس إن تنكرت لك الدنيا، وحين تلقاهم بوجه باسم إن ابتسمت لك الأيام، تثقل عليهم وتغري شرارهم بالشماتة بك إن أصابك الضر، وبالوجد عليك والحسد لك إن أصابك ما تحب.